بورتريه

على هامش الانتخابات البلدية، تشهد «عاصمة التحرير» ــ مدينة بنت جبيل، نوستلجيا تتمثل بعودة امرأة إلى «قريتها» باحثة عمّن يشاركها الشوق إلى ماضٍ تراه سعيداً مقارنة بالحاضر القابع، بنظرها، في مجالس العزاء

فاديا بزي

مُرشَّحة الحنين في عاصمة التحرير

(بلال جاويش)

غسان سعود

كانت صغيرة، في الثالثة، تشعر قدماها بنعومة الحجارة السوداء الصلبة المرصوفة بعناية على طول الطريق بين منزلها والحضانة المصبوغة بألوان زاهية. تجرّ معها إبراهيم الذي يصغرها بعام، ويجرها. هذا في الصباح، أما ظهراً فكان جدها أبو جورج ينتظرها مع أبو اسكندر في المقهى المجاور للحضانة. عبثاً تحاول أن تتذكر مع والدتها اسم ذلك المقهى، ليُضيّفها «سفن آب» ويمضي مع قصصها الجديدة إلى المنزل في «حاكورة نص الضيعة».

هذا الجد هو أحد مؤسسي الحزب الشيوعي في مدينة بنت جبيل. تعرفت إلى ملامح ابنه ـ والدها في التاسعة من عمرها. فقبل انتقالها معه إلى بيروت كان دائم الالتحاق بالكوفية الجنوبيّة، ينام مرتدياً بذلة الفدائيين والكلاشنيكوف ثابت في قبضته. حين اجتاحت إسرائيل الجنوب، عام 1978 توجهت القوات المسلحة مباشرة صوب منزلهم لتعتقله. يومها صرخت والدته مطالبة إياه بإخبارها أين خبأ الزر الذي قال لها بأن إسرائيل ستختفي من الوجود بمجرد أن يكبسه!

كانت فاديا بزي في التاسعة من عمرها حين أُخرجت لأول مرة من بنت جبيل. وحين عادت بعد ثلاث سنوات مع شقيقاتها، لم تعجبها الحياة كثيراً. كان الحشد في سوق الخميس في القرية قد بات هزيلاً، و«كان الإسرائيليون يذلّون الأهالي ثم يأتون إلى دكان جدتي ليشتروا السجائر بالمفرق». الجدة كانت تبيعهم بسعادة فائقة، مقتنعة بأنّ الدخان الأجنبي يقتل.

عادت لاحقاً، بعد التحرير، لتكتشف أن مدينة وسكاناً جدداً حلوا محل قريتها وأهاليها الطيبين، وتغيرت أمور كثيرة. قبل أن تعود إسرائيل في حرب تموز لتقضي على ما بقي من منازل صغيرة وأسواق وملامح تنشّط الذكريات. وحدها جدتها بقيت في مكانها، على حافة الدرج، عينها على الطريق المؤدية إلى فلسطين تنتظر ابنها. فقدت هذه السيدة بصرها والسمع. وما زالت تنتظر، رافضة أن تصدق استشهاد ابنها.

تقول بزي إن بنت جبيل الحقيقية تختلف عن هذه القائمة اليوم. تقف في وسط ساحة «حاكورة نص الضيعة» قبالة جامع كبير، مشيرة بإصبعها إلى آثار خيالية لأقدام، مرددة «هنا كان الكبار يرقصون ويدبكون حتى صياح الديك، وهنا كنا نقلدهم، وهنا كان الأكبر منّا يخيمون». وتركض الصور، قبل أن يستعيدها الواقع، فتسأل بجدية عن مكان الفرح في حياة أهل القرية اليوم، وسبل اجتماعهم بعيداً عن مجالس العزاء. وهي بالمناسبة لا تنتمي إلى بقايا الشيوعيين الرافضين للمتدينين، فوالدتها التي ترافقها في بنت جبيل محجبة، تدعو إلى الله مع كل خطوة لها خلف ابنتها أن يوفقها. في هذا السياق، يبدو غضب بزي، غيرة على ذكريات سعيدة ترى أن الدين لا يفترض أن يمنع تكرارها. الغيرة نفسها تدفعها إلى السؤال عمّا يحول دون عودة المهاجرين إلى بنت جبيل في الصيف، وعما حال دون الحفاظ عند إعادة إعمار المدينة بعد حرب تموز على الروح المعمارية لبنت جبيل. وتشير إلى أن السوق القديم يبدو في نظرها أشبه بمجموعة مقامات متلاصقة.

الاشتياق إلى بنت جبيل التي عرفتها طفلة وسمعت عنها الكثير لاحقاً هو ما يدفع الإعلامية فاديا بزي إلى الترشح لعضوية المجلس البلدي في «عاصمة التحرير». كأنها تبحث بطريقة غير مباشرة عمن يحنّ معها إلى الماضي فتبدأ العمل مع هؤلاء.

ترفض بزي اعتبار ما يحصل في بنت جبيل معركة، فالمعركة تكون بين الأعداء، أما المنافسون لحزب الله وحركة أمل فيشاركونهما العدو نفسه. وتضحك كثيراً، وهي تروي أن عائلة زارتها أخيراً أبلغتها أن المرشحين المناوئين لها قالوا عنها إنها مرشحة القوات اللبنانية في بنت جبيل. تضحك ثم تعبس، يحزنها ألا يتذكر أهل البلدة أنها ابنة «خيال السطوح»، وألّا يقدّروا مشاركتها في أعمال جبهة المقاومة، وأن يلغي من أكمل طريق المقاومة كل من سبقه.

يسألها البعض عمّا قدمته هي لبنت جبيل، فتجيب بأنها بداية انضمّت إلى جبهة المقاومة، ولاحقاً وثّقت إعلامياً تضحيات البلدة وعرّفت العالم بالمقاومين. وترى أنه بموازاة السلاح المقاوم، هناك دائماً إعلام وفن وثقافة مقاومة تدفع التحرير قدماً. وهي إذ ترى نفسها شريكة في التحرير، تؤمن بأن الأرض ليست لمن يحررها، فهي لأهلها.

> **فوجئت بعائلة تبلغها بأن خصومها قالوا عنها إنها قوات لبنانية**
>
> **بعد ثلاثين عاماً، وحدها جدتها بقيت في مكانها تنتظر ابنها**

تعود بزّي إلى ذاكرتها: «كانت البلدة تنقسم عشية كل انتخابات بين المؤيدين لآل بيضون والمؤيدين لآل بزي، وتقوم القيامة، فلا نوم في موسم الانتخابات، حفلات زجل ومناظرات حيّة. وكانت جدتي تطلب في كل انتخابات من والدتي البيضونية أن تطلّق والدي البزاوي، كي لا تخسر صوتها. وفي اليوم التالي لإغلاق صناديق الاقتراع، تعود المياه إلى مجاريها بين أبناء البلدة». أما اليوم، تتابع بزي، فحتى الانتخابات فقدت قدرتها على تحريك المواطنين الذين يعدونها تحصيل حاصل لأن النتيجة محسومة سلفاً.

تعترف إذاً بأن لائحة حزب الله وحركة أمل ستنتصر حتماً. طبعاً، تقول بزي. لكن السنبلة لا تفرّح وحدها، فلا بدّ من زرع قمحة. و«أنا حين حسمت قراري بالترشح، اعتقدت أنني لن أجد زميلاً، وسأخوض الانتخابات منفردة، لكنني فوجئت بوجود مجموعة من أبناء البلدة تتشابه أفكارهم. وهكذا قررنا تأليف لائحة من سبعة أعضاء لخوض انتخابات المجلس البلدي الذي يتألف من واحد وعشرين عضواً». هذه اللائحة التي لا تراهن على الانتصار، تعيش أياماً حلوة: توزع الزيارات على أعضائها فتتنقل بزي من منزل إلى آخر طوال بعد الظهر، تبلغ المندوبين مسبقاً بأن عليهم إحضار زواداتهم معهم يوم الأحد المقبل ويتشاركون جميعاً جمع مبلغ من المال يبدو صغيراً جداً مقارنة بما تصرفه الماكينات الأخرى لطباعة صور مرشحيها.

لا تفارق الابتسامة وجه بزي، عيناها البنيتان تتنقلان من زاوية إلى أخرى، انتماؤها إلى المكان يفيض هذه الأيام. فتتكلم على شوقها للحجارة السوداء، للمنازل الصغيرة، للشرفات المطلة على الطريق صوب فلسطين، لعرق والدها وقبضته الممسكة بالكلاشنيكوف ولوقع أقدام الدبيكة على الأرض بذات طريقتها في الكلام على ذلك الصبي الذي كانت أصابعه تغمر أصابعها خلال ذهابهما الصباحي إلى المنزل وعلى لوعة الإبعاد القسري ثم الطوعي عن البلدة.

تبدو الانتخابات ونتائجها مجرد تفصيل عند فاديا بزّي. هي مجرد مناسبة نبّهتها إلى قدرتها على العودة إلى بلدتها والتواصل مع ذاكرتها حين تقرر ذلك. حالها في ذلك من حال كثيرين.

وجهاً لوجه مع شبكات حزب الله

بقي وجود اليسار عموماً جدياً في بنت جبيل التي يمثلها في المجلس النيابي عضو كتلة التنمية والتحرير النائب علي بزي، حتى أواسط الثمانينيات. لاحقاً بدأ بعض اليسار الدخول في زواريب توصله إلى السلطة، وبعض آخر جذبته القوى الطائفية. أما من بقي يسارياً فعُزل تدريجاً.

ورغم العودة الشكلية للشيوعيين إلى البلدة منذ بضع سنوات، فإنهم لم يمثّلوا قوة ضاغطة بعد، رغم تقاطعهم في عناوين كثيرة مع بعض المستقلين ومع حزب الله. وتنقسم آراء أهالي بنت جبيل بشأن القوة السياسية الأولى فيها. فمنهم من يقول إن حركة أمل هي الأقوى، ومنهم من يؤكد أن حزب الله هو الأول، علماً بأن رئيس المجلس البلدي في بنت جبيل ورئيس اتحاد بلديات قضاء بنت جبيل الحالي، عفيف بزي، محسوب على حزب الله وهو مرشح مجدداً في هذه الانتخابات. ولدى حزب الله في قضاء بنت جبيل شبكتان، واحدة خدماتية وأخرى اجتماعية، متكاملتان تعملان بموازاة الشبكتين الدينية والعسكرية للحزب، ما يصعب على خصومه منافسته، ولا سيما أن هؤلاء لا يتمتعون بالقدرات المالية من جهة، ولا يقدمون مشروعاً بديلاً من جهة أخرى (لا تقدم اللائحة السباعية المنافسة للائحة حزب الله وحركة أمل في بنت جبيل مثلاً المشروع الذي تنوي تحقيقه في حال فوزها). هذا ما يجعل تفاعل أبناء بنت جبيل معهم ضعيفاً. ويلاحظ هنا أن الحماسة للانتخابات في بنت جبيل وجوارها تبدو معدومة، وعبثاً يبحث الزائر عن لافتة أو صورة تشير إلى وجود مرشحين لهذه الانتخابات على الأقل. علماً بأن بعض وجهات النظر في بنت جبيل نفسها تظهر سخطاً شعبياً من تأخر تنفيذ بعض المشاريع وطريقة إدارتها، لكن لا يرى معظم هؤلاء في صناديق الاقتراع مكاناً مناسباً للاعتراض على بعض الشوائب في عمل النافذين في «عاصمة التحرير».